التحليل النفسي التأييد ، الرفض ، البديل([4])

تكلم فرويد في العوامل الكامنة و راء سلوك الإنسان(الغريزة الجنسية) كدافع أساسي للسلوك و مفهوم العقل الباطن

(ما هو باقي في روحنا من أثار الغاب و الوحشية) و في منشأ السعادة و التعاسة ، و منشأ حس العدالة ، و تحرير الطفل ، و تفسير الأحلام ، و تقسيمات الشخصية من الأيد و الإيجو و الضمير الأعلى الأنا ، و الهو و الأنا الأعلى ، و مفهوم الحضارة ، و الشعور النظيف ، و أحلام المستقبل ، و نشأة الدين (رد فعل لجريمة ، نتيجة تآمر الأولاد على قتل أبيهم ليتخلصوا من سطوته المانعة لهم من ممارسة الجنس مع أمهم.و..بعد قتلهم لأبيهم أصابهم الندم ، فصمموا على أن يقدسوا الأب – كفارة على جريمتهم و ارتبط ذكر الأب بحيوان فامتنعوا عن قتله بل أخذوا يقدسونه . هذه هي الأفكار التي دارت حولها النظرية و نحن لسنا بصدد شرحها أو عرضها بشكل مفصل ، و لا بصدد تحويرها فهناك من آمن بها و جعلها مرجعية لا يمكن الحياد عنها في فهم وتفسير السلوك البشري .

و ليس غريباً أن وضعت مجلة «تايم» فرويد، في رأس قائمة المفكرين الذين أثّروا في الإنسانية خلال القرن العشرين. و يصعب الحديث عن فنون ذلك القرن، من دون التطرق إلى فرويد. ولعله أكثر القرون انشغالاً بالنشاط اللاواعي، المليء بالفانتازيا والحلم والشهوة والمكبوت.

أما الصحيفة الألمانية الأسبوعية (دي تسايت) فتورد عبارة دقيقة تقول: "إن فرويد تركيبة تاريخية دار حولها جدل شديد منذ بواكير أعماله" (مقال اليزابيت فون تادن: ماذا تبقى من فرويد؟ في جريدة دي تسايت، العدد 9 بتاريخ 2006/2/2)

فهذه النظرية انبثق عنها مجموعة من الممارسات في مجال علم النفس نذكر منها العلاج بواسطة التحليل النفسي ، الذي يعتمد في منهجيته على تخليص الشخص المريض نفسيا من عقده (العقد النفسية بالمفهوم الفرويدي) ، و واجه هذا الاتجاه نقدا لاذعا حتى من الذين مارسوا التحليل النفسي ، كجاك لاكان

فيونغ انفصل عن فرويد في الأعوام 1911- 1913 معترضا في البداية على الأهمية التي كان يوليها فرويد للجنسية الطفلية وعقدة أوديب ، و مشددا في مرحلة لاحقة على أهمية المكبوت الديني –أو الكامن الديني – في اللاوعي الجماعي لدى الإنسان الأوربي ، ثم مركزا على أهمية النزعة الدينية– الإنسان في التوازن

---

[4] Dr Mohammed Guemari , maître de conférence ,faculté des sciences sociales Université de Mostaganem

النفسي الإجتماعي لدى الفرد في خضم الأزمة الحضارية الغربية الذي يعتبر لدى فرويد كمرض عصابي يصيب الإنسانية وتفسر قواه العظيمة بنفس الطريقة التي يفسر بها الهوس العصابي في عصرنا

يصعب إسدال الستار عن فرويد، من دون الإشارة الى النقد الكبير، الذي يتراكم باستمرار، حيال مدرسة التحليل النفسي بأطيافها كافة. والحال أن التحليل النفسي لم يبق، بعد وفاة مؤسسه، مدرسة متماسكة منهجياً. وانقسم الى مدارس شتى. وقبيل ختام القرن العشرين، ظهر اتجاه في التحليل النفسي قاده الفرنسي جاك لاكان، الذي ربما كان اللمعة الأخيرة في ذلك السياق. ويميل الطب النفساني راهناً إلى الاغتراف من معين مدرسة التحليل النفسي، من دون جعلها أسلوبه الوحيد. وظهرت مناهج أخرى في مقاربة الطب النفسي، مثل المدرسة السلوكية والمعرفية والبيولوجية وغيرها. وباتت التقسيمات المُعتمدة للأمراض النفسية، بعيدة عن الصيغ الفرويدية في النظر إلى الاضطرابات النفسية وأمراضها. والأرجح أن الزمان بَعُد بعلوم الطب النفسي عن فرويد، لكن شيئاً كثيراً (أو قليلاً) منه ما زال حاضراً.

والأرجح أيضاً أن أفكار فرويد وصلت إلى حد ذروتها العالية في ستينات القرن 20، وخصوصاً مع اندلاع ما يُعرف باسم «ثورة الطلاب» في فرنسا، و «الثورة الجنسية» في الولايات المتحدة وغيرهما. والمفارقة أن بعض مفكري تلك الحقبة بعينها، وخصوصاً المُفكر الفرنسي جيل دولوز، انتقد الفرويدية بعنف. ووضع دولوز مؤلفاً شهيراً، بالمشاركة مع فيليكس غوتاري حمل عنوان «ضد أوديب»، ينتقد نظرة فرويد إلى اللاوعي والليبيدو، واعتباره جزءاً من نظرة الرأسمالية إلى الإنسان- الفرد. ومالا للنظر إلى أفكار فرويد كإسهام في وعي يزيد من غربة الإنسان في المجتمعات المُعاصرة.

وما قيل عن شخص فرويد وعن أعماله لا سبيل إلى إغفاله، فإن للرجل معجبين متحمسين بينهم أدباء كثيرون مثل الألماني توماس مان الذي كتب إليه أرتور شنتسلر الأديب النمساوي يقول "أنت في أعماقك باحث نفساني، صادق وغير منحاز وجرئ كما لم يكن قبلك أحد سوى واحد" (يعني فرويد) .

و قد بدا لي و للجمهور الذي حضر محاضرة ألقيتها في ملتقى حول تطبيقات علم النفس بعنوان " علم النفس بين التراث و النظريات النفسية الحديثة " بتاريخ 8 - 5-2006 بجامعة مستغانم بالجزائر ، حيث ثارت ثائرة بعض الأساتذة الذين تعلقوا بهذه النظرية حينما سمعوا بعض النقد الموجه إليها ، و قد يكونوا معذورين فهناك من لا يمكنه أن يحيد عن مرجعيته في معالجة بعض الظواهر ، ويصبح نمطيا

حتى و إن كان ما طرحه فرويد لا يمكن التحقق من صدقه علميا ، و قابل للملاحظة و القياس بالوسائل العلمية المتاحة حاليا .

وبالمثل فإن عدد خصوم فرويد كبير جداً. واحد من أشهر معاصريه كان من أهل فيينا وكان يكيل له نقداً لاذعاً اسمه كارل كراوس صاحب مجلة (الشعلة)، وفيها كتب بنفسه عام 1913 "التحليل النفسي هو ذلك المرض العقلي الذي يزعم التحليل النفسي أنه جاء ليعالجه"، ويقول إدوارد سعيد ضمن محاضرة له ظهرت كذلك في شكل كتاب بعنوان (فرويد وغير الأوربي) : "كل من يعرف أعمال فرويد المتميزة لا يسعه سوى الانبهار بالاتساع الرهيب لمعارف الرجل، لاسيما في مجال تاريخ الحضارة والأدب، ولا يخفى على القارئ في الوقت نفسه أن نظرة فرويد للثقافات غير الأوربية (ربما باستثناء الحضارة المصرية القديمة) قد تلونت بصبغة التقاليد المسيحية–اليهودية، بل لقد تشكلت تماماً وفقاً لها وبالأخص تبعاً للمبادئ الهيومانية والعلمية التي تمنحها تلك الصبغة (الغربية). لا يسلب هذا فرويد شيئاً من أهميته إلا أنه أمر يجعل الرجل يبدو أسير مكان وزمان لم يأبه بما يمكن أن نسميه اليوم "بالآخر" حسب تعبيرنا ما بعد الحداثي أو ما بعد البنيوي أو ما بعد الاستعماري" (إدوارد سعيد : فرويد غير الأوربي. زيورخ 2004 العنوان الأصلي للكتاب Freud and the Non-European صدر في لندن عام 2003).

فهل يشهد هذا القرن، الذي يتوقع كثيرون ان يُكرس لعلوم البيولوجيا بامتياز، تجديداً في النظرة الى فرويد؟ أم يسير به الى الاندثار؟

وبالمقابل في حضارتنا يؤكد بعض علماء النفس العرب أهمية الدين الإسلامي في سلوك الأفراد و الجماعات في العالم العربي حيث يجمع كثير منهم بأن القرآن كتاب ذو تأثير في حياة الفرد المسلم و في سلوكه وآدابه و حياته ، حيث تصاغ شخصيته ووعيها الجماعي ، و يقاد اللاوعي الفردي في شتى النشاطات الاجتماعية و الذاتية، و المفاهيم القرآنية كالإيمان بالله و بالآخرة و يوم الحساب تلف يوم الإنسان و غده ونظرته للكون و للظواهر و للخلود، فهي ركيزة أولى في الحضارة و في التاريخ و في الواقع الراهن و رسم المستقبل .

ولقد انعكست أهمية الدين الإسلامي بالنسبة لسلوك الأفراد في الاهتمامات البحثية لبعض علماء النفس العرب و نتيجة لذلك أصبحت الدراسات النفسية المتعلقة بالقرآن و الإسلام و الأمة و التراث العربي الإسلامي أكثر شيوعا خاصة خلال في فترة الثمانينات. و إذا رجعنا للتاريخ نجد أن كثيرا من مفاهيم علم النفس كانت لها الأسبقية و الأفضلية في التراث الإسلامي، مما هو في علم النفس المعاصر كما يقول عمر هارون خليفة. فمن الناحية التاريخية قد ارتقت بعض المعارف النفسية في التراث العربي و التاريخ يشهد أن المسلمين كانوا أول من استخدم مفهوم

الأمراض العقلية و أبعدوها عن معتقدات الأرواح الشريرة و تناولوها بالعلاج الإنساني ، بينما كان العالم الأوربي يحرق من يعتقد أنهم مسحورين و ينبذ المجانين . و في القرون الأخيرة و نتيجة الانحطاط الذي أصاب الأمة الإسلامية أهمل هذا المجال ، و بدأ الغرب يحيا علميا ، حتى أصبح مصدرا للتطور في جميع أبعاده ، إلا البعد الروحي الذي تخلف نتيجة للقطيعة التي صارت بين العلم و الدين وهذا رد فعل طبيعي في رأيي على ما اقترفته الكنيسة في حق العلم و العلماء ، و هم محقين في ابتعادهم عن ذلك الدين الذي أصابه التحريف و تخلله الجبروت الكنسي حيث كان دعوة للتحجر ، و تنامت التيارات المضادة و كان من بين هذه التيارات بروز نظرية التحليل النفسي التي دعمت إعلاميا و رسميا من أجل مناقضة الأفكار التي كانت تروجها الكنيسة (رمز الدين في مفهوم الغرب) مما هو الآن معمم على باق الأديان و خاصة الدين الإسلامي. فكيف لنا نحن كمختصين أن نستغل هذا الموروث في صياغة منهجا يصون النفس من التمزق و العقد و الأمراض ، ويرقى بالحياة إلى صفة الآدمية و الإنسانية المنشودة .

المراجع

Gilles Deleuze et Felix Guattari , l'Anti eodipe Editions de minuit , 1971.

Catherine Myer , Le livre noir de la psychanalyse , Vivre, Penser et aller mieux sans Freud ; Les Arènes , 2005.

محي الدين ناصر ، منبر الحوار ،1988-1989 العدد 12 ،السنة الثالثة ، ص 55.

إدوارد سعيد : فرويد غير الأوربي. زيورخ 2004 العنوان الأصلي للكتاب صدر في لندن عام 2003 .